التصوير على الثياب

كان هذا النوع من الثياب معروفاً عند العرب فى الجاهلية[٤٨] والإسلام ، ومن الأدلة عليه قول امرئ القيس :

خرجت بها تمشى تجرّ وراءنا على أثرينا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّلِ[٤٩]

أى عليه صور الرحال ؛ ويروى «مُرَجَّل» بالجيم ، أى عليه صور الرجال . وفسّر صاحب « اللسان » المرحَّل من الثياب فى مادة « م ر ج ل » استطراداً بالذى عليه صور الرحال قال وهى الإبل بأكوارها . وفى الحديث : « إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وعليه مِرْط مُرَحَّل » . وفى حديث السيدة عائشة ، وذكرت نساء الأنصار : « فقامت كل واحدة إلى مرطها المرحَّل » ، ومنه الحديث « كان يصلى وعليه من هذه المرحَّلات » ، والمراد هنا ما عليه صور الأكوار دون الإبل* . ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

هاج ذا القلبَ منزلُ دارس العهـــــد مُحْوِل
أيّنا بات ليـــــلة بين غصنين يُوبَل
تحت عينٍ كِنانُنا بُرْدُ عَصْبٍ مرحَّل[٥٠]

ومنه قول ذى الرمة :

كأن لم تحلّ الزُرقَ مىّ ولم تطأ بجرعاء حُزْوَى ذيل مرط مرَحَّل†[٥١]

وقالوا ثوب مُمَرْجَل يعنى عليه صور المراجل ، ومنه قول العجّاج يصف ثوْراً وحشيًّا مشبّهاً اختلاف لونه لما فيه من بياض وسواد بهذا الضرب من الوشى :

(*) قال العلامة الزرقانى فى شرح « المواهب اللدنية » فى شرح حديث : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة ، وعليه مرط مرحل من شعر أسود » . بأن المراد ما عليه صور رحال الإبل. قال : ولا يرد كيف لبس ما فيه صور وقد نهى عن التصوير ؟ لأنه لا بأس بهذه الصور ، وإنما يحرم تصوير الحيوان التام الخلق .

(†) كذا فى « خزانة البغدادى » ، والذى فى الديوان مرجل بالجيم .

تبدَّلتْ عين النعاج الخُذل وكلَّ برَّاق الشَعر مسرول
بِشِيَةٍ كشـية المرجل(٥٢)

وقالوا بُرد مُسهَّم لما صوِّرت عليه أشكال السهام ، قال أوس :

فإنّا رأينا العرض أحوج ساعة إلى الصون من رَيْطٍ يمان مسهَّم*(٥٣)

وقال ذو الرمَّة يصف داراً :

كأنها بعد أحوال مضين بها بالأشيمين يمانٍ فيه تسهيم(٥٤)

ومنه سمى النوع البديعى بالتسهيم على ما ذكر علماء البلاغة . وقالوا أيضاً : كساء مؤرنب ، ومنه قول ليلى الأخْيَلِيّة تصف قطاة تدلت على فراخها ، وهى حُصّ الرءوس لا ريش عليها :

تدلت على حُصّ الرءوس كأنها كُرَاتُ غلام من كساء مؤرنب(٥٥)

أى خُلِط فى غزلِه وَبَرُ الأرنب أو لونه لونُ الأرنب ، على مافى «لسان العرب» وقد أنشد سيبويه عجز هذا البيت فى كتابه فى باب لحاق الزيادة بنات الثلاثة من الفعل ، وقال شارحه السيرافى : « معنى مؤرنب متخذ من جلود الأرانب ، وقيل فيه صور الأرانب » . وقالوا ثوب مخلَّب لما كانت نقوشه كمخالب الطير ، وقيل المُخَلَّب الكثير الوشى ؛ كذا فى « خزانة البغدادى » نقلا عن العُباب .

وقالوا ثوب معضَّد لما كان مخطّطاً على شكل العَضُد . وقيل هو الذى له عَلَم فى موضع العضد من لابسه . قال زهير يصف بقرة :

فجالت على وحشـيّها وكأنها مسربلة من رازِقيّ معضَّد†(٥٦)

وفى « تاريخ اليعقوبى » أن تُبّع بن حسّان ملك اليمن ، وهو أسعد أبو كَرِب ، لما ذهب إلى مكة طاف بالبيت وعظَّمه ونحر وحلق رأسه ، وكساه المُلاء المعضَّد ، وقال فى ذلك :

(*) كذا فى « اللسان » و « خزانة البغدادى » ، ورواه التبريزى فى « شرح الحماسة » :
وإذا وجدنا العرض أفقر ساعة إلى الصون من برد يمان مسهم

(†) الرازق ثوب كتان أبيض ، وقيل كل ثوب رقيق .

وكسونا البيت الذى حرم الله مُلاءً معضَّداً وبُرُودا
ونحرنا بالشِّعْب ستَّة آلا ف ترى الناس نحوهنَّ وُرُودا
وأمرنا ألا نقرّب للكعـ ـبة مَيْتاً ولا دماً مفصودا
ثم طفنا بالبيت سبعاً وسبعاً وسجدنا عند المقام سجودا
وأقمنا فيه من الشهر سبعا وجعلنا لبـــابه إقليدا(٥٧)

وأما المُفَقَّر فى قول امرئ القيس :

كأن دُمَى شغف على ظهر مرمر كسا مزبد الساجوم وشيا مصوَّرا*
غرائر فى كِنّ وصون ونعمة يُحَلَّيْن ياقوتاً وشَذْراً مفقّرا(٥٨)

فمراده به أنَّ حُلِيَّهن كانت قطعاً من الذهب مصوغة على هيئة الفَقَار . وقال الأعلم الشنتمرىّ فى شرحه لديوانه : على هيئة فقار الجرادة .

وقالوا ثوب مُضَلَّع ومُعَمَّد ومسيّف ومهلّل ومكعب ومُطيّر ومخيّل ومشجّر ومُعرجن ومقفّص ومفلفل ومخوّص ومضرّس ؛ لما هو مصور بالأضلاع والعُمُد والسيوف ... الخ . وقد يخرجون عن هذه الصيغة كما قالوا الطَّبْلِيّة والطبل وأردية الطَّبْل لثياب عليها كهيئة الطبول . قال أبو النجم :

من ذكر أيّام ورسم ضاحى كالطبـــل فى مختلف الرياح(٥٩)

يريد هذه الثياب ، على ما فى « اللسان » ، وقال البَعِيث :

وأبقى طَوالُ† الدهر من عرصاتها بقية أرمام كأردية الطبـــل (٦٠)

وربما أتوا بلفظ من غير المـادّة كإطلاقهم السِجِلّاط على الثياب الموشية بهيئة الخاتم ، وكما قالوا ثياب سَبَنِّية للتى فيها أمثال الأترجّ . وقد يذكرون نوع الصورة وهم يريدون الثوب الموشّى بها كما فى قول الشاعر :

والبيض يرفلن فى الدُّمَى والرَّيْط والمُذْهَب المصون(٦١)

(*) شغف الساجوم موضعان ، وقد اختلف العلماء فى تفسير البيت لما فيه من الغموض .
(†) طوال الدهر بفتح أوله مداه .

قال فى « اللسان » : إن المراد يرفلن فى ثياب فيها تصاوير .

وما زالوا بعد ذلك يعرفون هذه الثياب ، ويتخذونها حقبة بعد حقبة ، وجيلا بعد جيل ، وعليه قول المتنبى :

تعس المَهارِى غير مَهْرِىّ غدا بمصوَّر لبس الحرير مصوَّرا[٦٢]

وقال السَلامىّ† يصف معركة لعضد الدولة مشبّهاً ما فيها من خيل وطير بثوب عليه هذه الصور :

والجوّ ثوب بالنسور مطيّر والأرض فرش بالجياد مخيّل

يقع العقاب على العقاب ويلتقى تحت السنابك أجدل ومجدَّل[٦٣]

أما اشتغالهم بصنعها فإنا لا نُنكر أن بعض أنواع الثياب المصوّرة وغير المصوّرة كانت تحمل إليهم من بلاد غير بلادهم كغيرها من عروض التجارة ، ولكن هذا لا ينفى مباشرتهم لعملها بأنفسهم ، وتصوير المصوَّر منها . وقد تقدم تصريحهم فى أشعارهم عن البرود المسهّمة بأنها يمنيّة ، وقول ابن أبى ربيعة : « برد عصب مُرحّل » يدلّ على أن هذا البرد المصوّر بالرحال يمنىّ أيضاً ، لأنّ العَصْب ضرب من برود اليمن .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة قطعتان[٦٤] ، إحداهما من الحرير الأخضر المخطط بالصفرة ، عليها صور طيور ، وأنواع من الحيوان ، وهى بقيّة ثوب عثروا عليه فى قبر بالصعيد . والأخرى من الكتان الملوّن عليها زخارف وصور حيوانيّة من ذوات الأربع ، وكلتاهما من آثار الصناعة العربية المحقّقة . وفى هذه الدار أيضاً رَوْسمان من الخشب للطبع على هذه الثياب[٦٥] ، وكفى بهما شهيدين على ما ذكرنا .

وقد ذكر البدرى فى « نزهة الأنام فى محاسن الشام » أن من محاسنها صناعة النسيج على تعدد نقوشه وضروبه ، ثم عدد أنواع ما ينسج منها ، وذكر منها : « الأبيض القطنىّ المصور لأحياء القصور وأموات القبور »[٦٦] .

(*) مما يحسن التنبيه إليه ما جاء فى النسخة المطبوعة بالوهبية سنة ١٢٨٢ من « شفاء الغليل » للخفاجى ونصه : « الدخدار ثوب أبيض مصور ، معرب تخت دار أى ذو التخت » . إلى أن قال : « وفسره فى الأغانى بمطلق الثوب المصور » . وهو خطأ من الناسخ أو الطابع ، صوابه (المصون) كما ورد فى الأغانى وكتب اللغة ، ويؤيد ذلك أنه معرب تخت دار أى ذو التخت أو الذى صين فى التخت . والتخت وعاء تصان فيه الثياب .

(†) السلامىّ بفتح أوله وتخفيف اللام نسبة إلى دار السلام (بغداد) ، وهو أبو الحسن محمد ابن عبد الله المتوفى سنة ٣٩٣ .